

نذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم وأسماء أهل الإسلام على منازلهم، ونجعل لكل قبيلة منهم خطباء، ونقسم أمورهم بابا بابا على حدته ونقدم من قدمه الله ورسوله عليه السلام في النسب، وفضله في الخصب، ولكنني لما عجزت عن نظمه وتنضيده تكلفت ذكرهم في الجملة والله المستعان وبه التوفيق ولا حول ولا قوة إلا به، (١-٣٠٦).

* * *

فإلى أي شيء تعزى هذه الظاهرة في كتاب «البيان والتبيين» أولا، وفي أمم مؤلفات الجاحظ الأخرى ثانيا؟ وما سبب هذا التذبذب بين المنهجية المستحكمة في التأليف والمسلك الاستطرادي الذي ينقض نفسه بنفسه إن شيء له أن يكون هو ذاته منهجا، حتى ولو تبناه صاحبه بضرب من التعليل الطارئ على الحدث لا السابق إيّاه، ذلك أن الجاحظ وإن استطرد - فيما استطرد إليه - إلى الحديث عن منهجه فإنه في مقام من غلبت عليه الظاهرة وأعوزته الحيلة فيها، فانبرى يوهم بأنها مقصودة لذاتها، ولا غرابة أن يحتج بعد ذلك لما لم ينتصر إليه في البدء، وأن يستدل على ما كان يودّ تفاديه واستدراك محاذيره، ولكنّه - على حدّ تصريحه وقد سبق - «عجز عن النظم والتنضيد» فتكلف الجمع والتكديس.

ذاك دأب الإنسان في ما يستعصي عليه من الأمر، تراه ينهض لدحضه فيقصر به الجِدُّ فتلفاه يعاود منتصرا لما كره، باحثا عما يقرّ به إليه حتى يصير منه.

وما شدّ الجاحظ - هذا الفكر القاهر الجماع - عن تلکم